الفصل الثاني

فارس «صديق الله»

عند بداية الحرب ـ وبعد أن كنت قد أمضيت بين العرب ثلاث سنوات ـ عدت إلى موطني الأصلي وعرضت خدماتي كمتطوع في سلاح الفرسان الألماني. ولكنني أرسلت إلى إستنبول وعملت في ظل الهلال التركي **أثناء قتال الدردنيل**. وفيما بعد ألحقت باللواء الرابع التركي في قناة السويس. وهنا وقعتُ ـ مثل الكثيرين ـ ضحية **الحمى النمشية**، ولكنني شفيت منها بعكس غالبية المرضى. كانت صحتي قد اعتلت كثيراً حتى إنني أعدت إلى البلاد كعاجز مرضياً. فالقدر على مايبدو لم يرغب في أن أتورط في حرب الصحراء والسياسات البدوية. أصبت بالملاريا وبخرّاج على الرئة نتيجة للحمى النمشية. كانت النقاهة الإجبارية مفيدة لي على المدى الطويل فلقد منحني الله جسماً قوياً.

قصة حياتي حتى الآن هي كالتالي: عندما بلغت الثامنة عشرة من العمر ذهبت إلى شمال إفريقية وبعدها بسنة واحدة كنت في الجزيرة العربية، وعندما بلغت الحادية والعشرين والنصف أصبح مسرح نشاطاتي في منطقة الدردنيل وما حولها، وتبع ذلك تجربتي المريرة التي دامت ثمانية أشهر في قناة السويس أعقبتها

obeikandl.com

فترات طويلة من المرض. وعندما احتفلت بعيد ميلادي الرابع والعشرين كنت مجرد هيكل عظمي تفوح من دمي رائحة الحمّى. وعلى الرغم من أنني لم أكن أستطيع الوقوف على قدميّ فقد عبّرت عن رغبتي في أن أخدم في تركيا ثانية، ولكن السلطات لم ترغب في وجودي هناك. وبدلاً من ذلك أرسلتني إلى روسيا حيث قضيت ثمانية عشر شهراً في معسكرات فرز الأسرى. ووجدتني الهدنة في أوكرانيا بعد انهيار ألمانيا وثورة بولندا. فضاع كثير مما كنت آمل فيه، فليس لي مستقبل في أوربا. والشرق الأوسط مغلق في وجه الألمان. اتجهت إلى كاليفورنيا فوصلتها وليس في جيبي سوى دولار ونصف. وبعد أن بعت عدساتي وآلة تصويري (هي رفيقاتي في بلاد كثيرة) في **نيويورك** لأتمكن من جمع الأجرة إلى **سانتا آنّا**. وهنا في أرض السمن والعسل والفاكهة والشمس المشرقة أصبح بإمكاني التطلع إلى حياة جديدة مليئة بالصحة والسعادة. عشت في مزرعة حيث قضيت أكثر من ثماني ساعات يومياً على ظهر الخيول. وهكذا استعدت صحتي وجدّدت دمائي. وبحلول عام ١٩٢٦ أصبحت رجلاً جديداً وبدأت أفكاري تتجه نحو الجزيرة العربية. وأخذ حنيني يزداد ـ إلى البدو. أما زال الأمير فواز على قيد الحياة؟ كيف تسير أحوال الرولة؟ ونوري العجوز؟ وأتى اليوم الذي لم أستطع فيه مقاومة هذا الحنين.

وبالفعل بعد أربعة أسابيع احتفلت بلقائي بنوري الشعلان ثانية في دمشق، حيث عاش منذ نهاية الحرب العظمى. وفي سن الثمانين مازال شيخ عشيرته على الرغم من أنه يعيش في المدينة ويتلقى دخلاً محترماً من الفرنسيين، وقد أصبح مؤخراً نائباً في البرلمان السوري. وعهد بمشيخة قبيلته في الصحراء إلى حفيده الأمير فواز نفسه. وعلمت أن نوافاً والد فواز واثنين آخرين من أولاد نوري قد ماتوا خلال غيابي.

ولقد دهش نوري كثيراً وسرّ كثيراً لرؤيتي ثانية بصحة جيدة ومعنويات عالية. وقادني إلى غرفته الخاصة التي فرشها حسب ذوقه البدوي. كانت كداخل

خيمة بدوية بموقد القهوة وكومة الرماد الأبيض وفرشاتها ووسائدها العديدة القائمة مقابل **شداد الجمال** التي كانت دافعاً إيجابياً للكسل.

وعلى عمود ارتفاعه متر واحد وقف صقر صيد عريض المنكبين، وقد خبأ أحد مخلبيه تحت ريشه على استعداد للانقضاض. ونزع نوري «قبعة» الصقر الجلدية فرمقنا بعينيه الواسعتين السوداوين وبدأ يصوت. ثم طلب نوري العجوز حمامة وأطلقها في الهواء. وبحركة سريعة كالبرق لا يمكن للعين متابعتها انقض الصقر على فريسته ومزقها.

القسوة جزء لا يتجزأ من البدوي، فهو يسرّ لرؤية الدم السائل. وبدا كأن نوري يجدد نشاط شبابه باللهو بالصقر. في هذا العالم لا يصارع الأقوياء أمثالهم بل كثيراً ما يكون الضعفاء ضحايا **القسوة الخالصة**. وفي الجزيرة العربية خصوصاً لا يمكن للمرء أن ينسى ذلك.

وبعد أسبوع استأنفت رحلتي إذ أعطاني نوري رفيق سفر وحارساً **فارس ابن نايف الصعبي**، وهو بدوي شمريّ شاب لكي أقوم برحلتي بأمان إلى قبيلة الشيخ العجوز العظيمة بجوار **وادي سرحان** ورمال صحراء النفوذ الحمراء.

كان من الغريب أن يكون دليلي إلى الرولة بدوي شمريّ لأن هاتين القبيلتين عدوتان لدودتان لعدة قرون. ولكن عائلة فارس مع الرولة لمدة ستة عشر عاماً بسبب عداوات الدم، وهذا يفسّر سبب حمايتي من قبل شمّري في أراضي أعداء عشيرته الألداء. ولكن هذا الاختيار دلّل أيضاً على حكمة نوري الشعلان لأن فارس يستطيع حراستي من أعداء الرولة لأنه شمّري، كما أنه يستطيع ضمانتي أمام أي رولي لأنه كاتم أسرار نوري.

وفارس هذا رجل فذ؛ فمنذ اللحظة الأولى للقائنا عندما قدمني نوري له شعرت بأن ذلك أكثر من معرفة عابرة. فنعومة صوته عندما ألقى علي السلام وقبضة يده القوية كشفت لي في لحظة واحدة نفس هذا البدوي الشاب الطاهرة الصريحة. فَتَحْتَ عباءته ينبض قلب رقيق وقوي يجعلني أعترف بأنني لم أصادف مثيلاً له بين البشر. وحتى آخر رمق بقي أخلص صديق عرفته. وجهه البيضوي

النبيل لا يمكن أن ينسى وكذلك عيناه السوداوان اللطيفتان. كما أن شعره ولحيته وعباءته الفضفاضة جعلت منه شخصية أخاذة. وعلى الرغم من رقته وليونته كان فارساً من أشجع وأجسر أبناء إسماعيل. ربما كان يعيش متأخراً عن عصره بألفي عام.

وبعد أن تركنا ضواحي دمشق القديمة خلفنا قادنا طريقنا عبر بساتين المشمش والزيتون والجوز إلى السهول المفتوحة. وشمخت قمم الجبال السورية المغطاة بالثلوج إلى السماء الزرقاء. الطريق الطينية الجافة الوعرة تخترق الحقول الجرداء والمراعي الرمادية القاحلة. وبعد ذلك وصلنا السهول الفسيحة التي تخترقها شبكة من الطرق المتقاطعة بفوضى مربكة. وعلى حافة السهوب يوجد مخفر جمرك سوري حيث دققت جوازات سفرنا. وأخيراً أصبح باستطاعتنا التخلي عن الطريق البري والدخول في الصحراء المجهولة دون أية طرق أو علائم. وانطلقت سيارتنا فوق التربة الصلبة الجافة المفروشة بالحصى باتجاه الشرق باستمرار بمحاذاة لسان أرضي بلانهاية، وبدا أنه ينغمس أعمق فأعمق وسط بحر غامض بلا حدود. وفوقنا كانت السماء صافية، وعلى الجانبين ظهرت ومضات السراب الضبابية يتراقص فوقها الهواء. وفجأة ظهر بعض رعيان الماشية العرب كأشباح تخرج من السديم. ولم يكن لديهم سوى القليل من الجمال والخيول، بينما ركب الرجال على الحمير وهذا دليل على صفتهم. كانوا من الفواعر، وقد لاحظناهم أثناء اتجاهنا نحو بقعة من الماء تلمع في انهدام متطاول في الصحراء.

كان السراب كثيراً، وغالباً ما كان خداعاً لدرجة لا يمكن تصديقها. إذ لم يكن من السهولة تمييز برك الأمطار الحقيقية (التي يبلغ عمقها حوالي القدم فقط والتي تماوج الريح سطوحها) عن البرك السرابية التي تبدو سطوحها لامعة. وفجأة لاحظنا أمامنا بعض قطعان الأغنام التي تعبر الأراضي التي يغمرها السيل حتى الصدر. وخففت السرعة أوتوماتيكياً لأنني رأيت فجأة على بعد أقل من مئة ياردة بريق ماء بحيرة ضحلة والسيارة تتجه إليها مباشرة. أدرت عجلة القيادة. وعندها

فقط أدركت أن ما رأيناه لم يكن سوى حوض جاف امتلأ بالهواء الحار البرّاق وبالسرعة القصوى دخلت في الحوض باتجاه برك المطر.

وأقتربت الأغنام أكثر فأكثر وفي لحظة واحدة تغيرت الصورة بأكملها. اختفت البركة الطويلة العريضة، ولم يعد هناك أي أثر للماء. وبدلاً من الماء المتلألىء رأينا حولنا كتلة مغبرة من القطعان ـ آلاف وآلاف من الغنم والماعز.

وأوقفت السيارة لتمر الحيوانات ووصل إلينا الرعاة بنسائهم وأولادهم وتفحصونا بفضول وحيّونا بالسلام. قمت بتوزيع السجاير والحلويات. وبالمقابل أخبرنا البدو الرحل **كثيرو الكلام** أنهم عائدون إلى مراعيهم الأصلية في الشمال لأن القبائل البدوية الأخرى نازعوهم على منطقتهم. وبعد ابتعادهم أصبحت الصحراء خالية من جديد.

وأمامنا امتد الحماد ـ المرتفعات الشمالية من الجزيرة العربية التي بدت أنها تمتد إلى ما لانهاية: أرض منبسطة قاسية ولاشيء هام يغيّر وتيرتها الرتيبة لمئات الأميال جنوباً وشرقاً. وأثناء اجتيازنا لهذه الأراضي المرتفعة الجافة ــ ساعة إثر ساعة ـ كانت تهب أمامنا من مراعي الإبل أسراب هائلة من الطيور المهاجرة. كانت تطير لبضعة مئات من الياردات قبل أن تحط ثانية على الأرض كالسحب. ولكم جفلت منا حباري الصحراء الخرقاء، كما هبّت أمامنا أسراب كبيرة من طيور **الطيهوج**. هذه الطيور الصحراوية ـ التي يساوي حجمها الحجل الأوربي ــ تتغذى بصورة رئيسية على اليرقات الحمراء اللاهبة التي تتوضع على كل ورقة وساق في البريّة القاحلة. خرج ذئب صغير من مخبئه كما قفز ثعبان بعيداً عنا. كما صادفنا أيضاً بومة كبيرة وقفت تطرف بعينها بارتباك في ضوء النهار فأوقفنا سيارتنا بالقرب منها.

وفجأة ـ قبل غروب الشمس ـ هطلت زخّة من المطر أنعشت الصحراء المغبرة. قضينا معظم الليل في ستر قاع نهر جاف مستلقين على الرمال.

وفي مساء اليوم التالي بعد قيادة جنونية تطاردنا عاصفة رملية إلى الرولة. كانت القبيلة الكبيرة كلّها تهاجر نحو الشمال وخيامها تمتد أبعد من مدى البصر

وقطعانها الهائلة منتشرة في كل اتجاه. احتوى انهدام ضحل نحو ثمانين خيمة من مختلف الأحجام وواجهاتها المفتوحة كلها باتجاه الريح، وبينها انتصب أوسع سرداق في الجزيرة العربية ألا وهي خيمة نوري الشعلان الشهيرة.

توقفنا هناك وكان سؤالي الأول عن الأمير فواز. ولكن زعيم الرولة الشاب لم يكن في بيته بل كان في زيارة عشيرة تخيّم بعيداً عن المضارب الرئيسية.

* * *

obeikandl.com